الفصل التاسع

في أهم آثار مصر الوسطى والصعيد

ينحصر أهم آثار مصر الوسطى في أربع مواضع وهي مدينتان ومقبرتان اما المدينتان فهما عين شمس بقرب المطرية ومنفيس أو ميت رهينة والمقبرتان هما أهرام الجيزة ومقابر سقاره.

أما عين شمس واسمها القديم (أن) فكانت مدينة قديمة جدا مقدسة عندهم لأنها كانت مرصدة على معبودهم (رع) أي الشمس وكان بها مدرسة كلية جامعة ولشهرتها سعي إليها كل من سولون مشروع اليونان وأفلاطون الحكيم وفيثاغورس لتلقي العلوم بها وفي مدة رمسيس الثالث (أحد ملوك العائلة العشرين) بلغ عدد طلبة العلم بأحدهيا كلها اثنى عشر ألف طالب ويري به الآن ما يعرف باسم مسلة فرعون وهي أقدم المسلات المصرية لأنها من عمل أوزتن (من العائلة الثانية عشرة) وعليها اسمه وطولها ٢٠ مترا و ٢٧ سنتيا وقد رأي عبداللطيف البغدادي في سياحته بمصر سنة ١٩٩٠ميلاديه جملة آثار بالمطرية منها مسلتان متوجتان بتاجين من نحاس كالقمع تزنجرا وسالا على بسطهما وقال مُحَمَّد بن إبراهيم الجزري في تاريخه(وفي رابع شهور رمضان سنة ٦٥٦

هجرية وقعت احدى مسلتي فرعون التي بارض المطرية فوجدوا داخلها مائتي قنطار من نحاس وأخذ من رأسها عشرة آلاف دينار)[1]وفي سنة ١٨٥٨ مسيحية ظهر بها أحجار كان أعدادها طوطوميس الثالث (أحد ملوك العائلة الثامنة عشرة) لتوسيع أحدها كلها وقال استرابون الجغرافي أن ابتداء خراب هذه المدينة كان على يد قبيز ملك العجم أما الآن فلم ير بها غير سور المعبد والمسلة السالفة الذكر وسبب خرابها بهذه الحالة هو عين سبب خراب مدينة (أبو) ومدينة (دندره) (والعرابة المدفونة) وغيرها وهو دخول الديانة المسيحية التي هدمت الآثار الجليلة أو جعلتها مساكن أما الأطلال التي حول المسلة فهي آثار المدينة القبطية لا آثار شمس الحقيقية وقال المقريزي قال جامع السيرة الطولونية كان بعين شمس صنم بمقدار الرجل المعدل الخلق من كدان أبيض محكم الصنعة يتخيل من استعرضه أنه ناطق فوصف لأحمد بن طولون فاشتاق إلى

(1) هذه عبارة فيها نظر لأن معاملتهم كانت بالعروس وهذا الذهب بالعمل بالمضروبة.

تأمله فنها ندوسه عنه وقال ما رآه وال قط الأعزل فركب إليه وكان هذا في سنة ثمان وخمسين ومائتين وتأهله ثم دعا بالقطاعين وأمرهم باجتثاثه من الأرض ولم يترك منه شيئاً ثم قال لندوسه خازنه يا ندوسه من صرف منا صاحبة فقال أنت أيها الأمير

اه أما مدينة منفيس المعروفة الآن باسم ميت رهينة فهي أكبر المدن القديمة وربما وجد بها بقايا من بناء العائلة الأولى والثانية والثالثة لأنها أقدم العواصم المصرية ومن إنشاء الملك (منا) أول فراعنة مصر وذكر استرابون آن مدسنة منفيس تمتد إلى سهول جبال لبيا وذكر عبداللطيف البغدادي أن طولها نصف يوم وعرضها كذلك غير أن عمليات الحفر التي أجرتها الحكومة المصرية في تلك الجهة لم تحقق جميع هذه الأقوال والظاهر أنها كانت مستطيلة جداً بحيث تصال إلى مدينة الجيزة شمالاً وقرية الشمباب جنوباً والدليل على ذلك أنه يوجد الآن بأرض المزارع أحجار قديمة وجدر مدفونه تحتها وأغلبها بقرية ميت رهينة التي كان بها معبد فتاح المعروف عند اليونان باسم فلكان أو آلة النار وينسب إلى هذه المدينة كثير من الأهرام كهرم أبي صير وأهرام سقارة ودهشور وفي مدة العائلة الرابعة والخامسة والسادسة اتسع نطاق عمارتها ثم أهمل شأنها بالكلية مدة العائلة الحادية عشر والثانية عشرة والثالثة عشرة ثم استولى عليها العمالقة فوقعت في الاضمحلال إلى أن تمكن ملوك العائلة الثامنة عشرة من طردهم فعاد إليها مجدها الأول ثم دارت عليها الدوائر ثانياً بتغلب الأشوريين والزنوج والعجم عليها وكان بها بعض محاسن من رونقها القديم مدة حكم اليونان وأخبر استرابون الجغرافي أنه لما زارها وجدها عبارة عن أنقاض مكومة وأطلال متهدّمة.

وإليك طرفاً مما رواه عبد اللطيف البغدادي في كتاب الإفادة والاعتبار صحيفة ٢٩ قال ومن ذلك الآثار التي بمصر القديمة وهي منف التي كان يسكنها الفراعنة وكانت مستقر ملوكها فهذه المدينة مع سعتها وتقادم عهدها وتداول الملل عليها واستئصال الأمم إياها من تعفيه آثارها ومحو رسومها ونقل حجارتها وإفساداً بنيتها وتشويه صورها مضافاً ذلك إلى ما فعلته فيها مدة أربعة آلاف سنة فصاعدا تجد فيها من العجائب ما يفوت فهم المتأمل ويحصر دونه البليغ اللسن وكلما زدته تأملاً زادك عجباً وكلما زدته نظراً زادك طرباً ومهما استنبطت منه معنى أنباك بما هو أغرب ومهما استأثرت منه علماً ذلك على أن وراءه ما هو أعظم فمن ذلك البيت المسمى بالبيت الأخضر وهو حجر واحد تسعه أذرع ارتفاعاً في ثمانية طولاً في سبعه عرضاً إلى أن قال وعلى ظاهرة صورة الشمس مما يلي مطلعها وصور كثير من الكواكب والأفلاك وصور الناس

والحيوانات على اختلاف من النصبات والهيآت فمن بين قائم وماد رجليه وصافهما ومثمر للخدمة وحامل آلات ينئ ظاهر الأمر أنه قصد بذلك محاكاة أمور جليلة وأعمال شريفة وهيئات فاضلة وأشارت إلى أسرار غامضة وأنها لم تتخذ عبثاً ولم يستفرغ في صنعتها الواسع المجرد الزينة وقد كان هذا البيت ممكناً على قواعد من جارة الصوان العظيمة الوثيقة فحفر تحتها الجهلة والحمقي طمعاً في المطالب فتغير وضعه واختلف مركز ثقله وثقل بعضه على بضعه فتصدع صدوعاً لطيفة إلى أن قال وحجارة الهدم متواصفه في جميع أقطار هذا الخراب وتجد هذه الحجارة مع الهندام المحكم والوضع المتقن قد حفر بين الحجرين منها نحو شبر في ارتفاع أصبعين وفيه صد النحاس وزجرته فعلمت أن ذلك قيوداً لحجارة ورباطات بينها ثم يصب عليه الرصاص وقد تتبعها الأنذال المحدودون ففلعوا منها ما شاء الله تعالى وكسروا كثيراً من الحجارة ليصلوا إليها ولعمر الله لقد بذلوا الجهد في استخلاصها وأبانوا عن تمكن في اللؤم وتوغل في الخساسة إلى أن قال وإذا رأي اللبيب هذه الآثار عذراً لقوم في اعتقادهم في الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة.

وجثتهم عظيمة أو أنه كان لهم عصا إذا اضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم إلى أن قال وأما الأصنام وكثرة عددها وعظم صورها فأمر يفوق الوصف ويتحاور التقدير وأما اتقان أشكالها وأحكام هيأتها والمحاكاة بها الأمور الطبيعية فوضع التعجب في الحقيقة فمن ذلك صنم ذرعناه سوى قاعدته فكان ينفا وثلاثين ذراعاً وهو حجر واحد من الصوان الأحمر وعليه من الدهان الأحمر ما لم يزده تقادم الأيام إلا جدّة وقال ولقد شاهدت كبيراً منها وقد نخت من ضلعه رحي قطرها ذراعان ولم يظهر في صوريته كبير تشويه ولا تغير بين أه أما الآن فليس بها غير نخيل مغروس في تلال تلك الأطلال وبعض جدر بقيت من تلك المباني الفخيمة وعمد مكسورة وتماثيل مهشومة منها ما هو مركوز في التراب ومنها ما هو ملقي في الطين الوحل شذر مدر وآل أمر هذه العاصمة إلى ما ترى بعد ما لمعت دوراً مهماً في تاريخ العالم القديم أما الأهرام فسوف يأتي ذكرها في الباب الآتي وأما مقابر سقارة فهي أهم وأكبر مقابر الدولة المنفيسية لأنها تمتد في سهور الرمال الغربية نحو سبعة كيلو مترات طولا ويختلف عرضها ما بين ٥٠٠ متر و١٥٠٠ متر ومن المحقق أنه لا يوجد فيها بقعة إلا وقبلتها أيدى الناس جملة مرارا قديما وحديثاً حتى صار الآن عبارة أنقاض ورمال مكومة فوق بعضها ومهام سار الإنسان فيها لا يطأ غير آبار مهدومه ومطمورة باقي التراب وأسوار من الأجر واللبن أخنت عليها الأيام و كثبان ومدر وأحجار تعيق سيره ولا يقع نظره الأعلى عظام نخرة وأكفان بالية تخبره أنه في مملكة الأموات وكفات الرفات.

وفي الجبهة الغربية يري الانسان مكانا يعرف باسم سرا بيوم وقد تكلم عليه استرابون وذكره سياحيو اليونان في رسائلهم غير مرة وقد استكشفه حديثا ما ريت باشا سنة ١٨٥٠ مسيحية وهو مدفن العجل أبيس معبودهم وكان من عادتهم أنه متى نفق بالموت حنطوه وواروه في هذا المدفن وهو عمارة جسيمة لم تبق منها الأيام غير المقابر المنحوتة تحت الأرض وجميع هذا المدفن ينقسم إلى ثلاثة أقسام أحدها وهو أقدمها نيسب إلى العائلة الثامنة عشرة ومقابر منفصلة عن بعضها ومستورة الآن بالرمال ثانيا ينسب إلى الملك سينثاق أحد فراعنة العائلة الثانية والعشرين وإلى طرقه أحد ملوك العائلة الخامسة والعشرين السودانية وهذا القسم عبارة عن سرادب تحت الأرض به جملة قاعات كل واحدة منها مدفن لعجل على حدته بيد أنه لا يتيسر رؤيته لسقوط سقف بعض جهاته وتصدع باقيه أما القسم الثالث فينسب إلى أيام الملك أبسا ميطيق الأول رأس العائلة السادسة والعشرين وإلى آخر ملوك البطالسة وهذا القسم يشابه ما قبله بل أكبر وأعظم منه ومحيطة ٣٥٠ متر وطول أكبر أضلاعه ١٩٥ متر وبه أربعة وعشرون ناووساً من الجرانيت يزن كل واحده منها ٦٥.٠٠٠ كيلوا جرام وكان من عادة أهل منفيس أن تأتي في أعيادهم لزيارة موتى هؤلاء العجول ويضعون حجراً مكتوباً عليه تاريخ اليوم والشهر والسنة من حكم ملك عصرهم وحدت هؤلاء الجارة الآن

وعلى نحو ربع ساعة من الشمال يرى الإنسان أربعة قبور أحدها لمن يدعى(تي) وثانيها لمن يدعى(فتاح حوتب) وثالثاً إلى (ميرا) ورابعها إلى (قابين).

وفي الجنوب الشرقي من الهرم الأكبر يرى الإنسان ما يسميه العوام باسم أبي الهول وهو عبارة عن صخرة هائلة نحتت على شكل حيوان برأس آدمي وجثة سبع وكانت رأسه مكتوبة ومحيت بتقادم الإعصار ويبلغ طول هذا التمثال نحو ١٩,٨٠ متراً واتساع الفهم ٢,٣٢ متر وعرض الوجه من نتو الخد إلى مثله ٤,١٥ متر ولم يزل تاريخ هذا التمثال مجهولاً إلى الآن رغماً عن شدة البحث والتنقيب فهجس بخاطر المؤرخين أولاً أنه من عمل طوطوميس الرابع أحد فراعنة العائلة الثامنة عشرة ثم علم بعد ذلك من حجر موجود الآن بالمتحف المصري أن هذا التمثال كان موجوداً حينما صدرت أوامر الملك(خفو) أحد فراعنة العائلة الرابعة بتجديد ما يلزم من المباني وعلى ذلك فهو من أقدم المعبودات المصرية ويسمى عندهم (أرماخيس) وتمسية الافرنج الآن(اسفنكس) وكان هذا الاسم علماً في بلاد اليونان حيوان خرافي.

وبجوا رأي الهول بناء أغرب منه كأنه لغزير ادفك معماه من علماء الآثار وقد عجزوا عنه ولاشك أنه من عهد بناء الأهرام ولا يعلم الغرض منه أن كان معبداً أو قبراً أو هرماً مهدوماً فإن قلنا أنه معبد رأينا به سنة مخادع تعلو به بعضها بعضاً كالموجود بتداخل الهرم الأصغر فإذا قطعنا النظر عنها وجزء منها بهذا القول متعللين بدعوى أن القدماء لما اتخذوا أبا الهول معبوداً لهم اضطروا أن يجعلوا له معبداً بجانبه قالوا لنا هذه دعوة من غير دليل لأنه لم يوجد

الى الان معبدا باق من تلك الأيام حتى يمكن المقارنة بينهما. وإذا سلمنا هذا القول لكم جدلاً هل أرصدوه على أبي الهول أم أرصدوا أبا الهول عليه ولماذا جعلوا فيه هذه المخادع على هذا النمط إذ لا فائدة فيها كما أن شكل مخالف الجميع المعابد لمعوذة الآن .وإن قلنا انه مسطبة أعدوها لدفن موتاهم بجوار معبودهم تبركا به كباقي المساطب التي حوله قالوا لنا وأين بئرها التي لابد منه الكل مسطبة سيما وهيئة وضعه تخالف هيئة جميع المساطب.

وان قلنا أنه هرماً هدمته الأيام كباقي الأهرام التي كانت هناك ووجود مخادعه أعظم شاهد عدل لذلك قالوا لنا لو صح ذلك لترتب عليه أن يكون أكبر جميع الأهرام التي بأرض مصر لاتساعه مع أننا لم نجد لهذا الآن أدني أثر يجعل هذا القول في الكفة الراجحة وعلى كل فهذا البناء عقدة لم تسمح لنا الأيام بحلها ولعل المستقبل يسمح بذلك أما أهم آثار الصعيد فكثيرة جداً ومنتشرة على شاطئ النيل وفي الجبال والمدن والقرى كاليها كل أو المعابد والمقابر القديمة ومقاطع الأحجار والصخور الأثرية وغير ذلك أما المعابد فأعظمها معبد دندره لأنه باق بحالة جيدة إلى الآن وسيأتي بيان ما اشتمل عليه ثم معبد العرابة المدفونة بمديرية جرجا ومعبد الأقصر ومعبد الكرنك وهو أكبرها وأعجبها ودير المدينة والدير البحري ومعبد رمسيس ومعابد مدينة(أبو) وكلها بمدينة طيبة القديمة بميرية قنا ومعبدانا وادفو ومعبد كوم امبو ومعبد جزيرة (فليا) المعروفة بجزيرة أنس الوجود وكلها بمحافظة الحدود.

أما المقابر القديمة فهنا مقابر بني حسن الجميلة بمديرية المنيا ومقابر(خون آتن) بجهة الحاج قنديل وتعرف بمقابر تل العمارنة ثم مقابر أسيوط واسطبل عنتر المحفورة في الحجر ومقابر وادي سرحة والغنائم ومقابر فاو والنواميس والباري والمعابد وكلها بمديرية أسيوط ومقابر العصاصيف أو العاسيف وذراع أبي النجا وقرنة مرعي والشيخ عبد القرنة ومقابر بيان الملاك وهي أجل الجميع لأنها كانت مقابر للملوك وكلها بجوار القرنة ثم مقابر اسوان العجيبة لوضع وسوف يأتي

الكلام عليها في مواضعها بالرحلة العلمية أما المغارات والكهوف ومقاطع الأحجار فشيء يخرج عن حدا الحصر أعظمها مغارة الشيخ عبادة ولا يتيسر للإنسان أن يأتي على آخرها لتشعب دروبها وشدة ظلامها.

ثم مغادرة دير أبي حنس ومغار دير ريفه وكلها بمديرة أسيوط ثم مغار جبل السلسلة وغير ذلك مما يطول شرحه ويمل القارئ من ذكره.

أما لتماثيل والأصنام فكثيرة جداً وأعظمها بالأقصر وأجفاها صنم الرسميسوم ثم صنماً ممون بالقرب من مدينة (أبو).

أما الصخور الأثرية والنفوش التي على الجبال وفوق سطحها فشيء يكل عنه الوصف ويقف القلم حائر عند بيانه وإذا أردنا استيفاء الكلام على وصف كل واحدة مما ذكرناه لاحتجنا إلى كتابة كراسة بل كرار به وليس الخبر كالعيان وجميع ما قللناه يسير بالنسبة لما لم نذكره وهو قليل بالنسبة لما هو موجود ولم نعلم مكانه وأين هذا مما هو مردوم تحت التراب ولم نهتد لمكانة وكله شيء قليل بالنسبة لما اتلفته الأيام وهو شيء يسير في جانب ما دمرته الأجانب وهو لاشيء بالنسبة لما دمرته الديانة المسيحية وهو شيء لا يذكر بالنسبة لجميع ما صنعته يد القدماء ولله در ا لقاتل.

وبادوا فـــلا مخـــبر عـــنهم ومـــاتوا جميعـــاً وهـــذا الخـــبر

فمـــن كـــان ذا عـــبرة فلـــيكن فطينـــا ففـــي مـــن مضـــى معتـــبر

وكـــان لهـــم أثـــر صـــالح فـــإين هـــم ثم أيـــن الأثـــر

وقال سعيد بن كثير بن عقير كنا بقية الهواء عند المأمون لما قدم مصر فقال لنا ما أدرى ما أعجب فرعون من مصر حيث يقول أليس لي ملك مصر فقلت أقول يا أمير المؤمنين فقال قل يا سعيد فقلت أن الذي ترى هو بقية مدمر لأن الله عز وجل يقول ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كان يعرشون قال صدقت ثم أمسك